سورة السجدة

مكية [إلا من آية ١٦ إلى غاية آية ٢٠ فمدنية]
وآياتها ٣٠ وقيل ٢٩ [نزلت بعد المؤمنون]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝٣﴾

﴿الٓمٓ ۝١﴾ على أنها اسم السورة مبتدأ خبره ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وإن جعلتها تعديداً للحروف ارتفع ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ بأنه خبر مبتدأ محذوف: أو هو مبتدأ خبره ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ والوجه أن يرتفع بالابتداء، وخبره ﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ و﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾: اعتراض لا محل له. والضمير في (فيه) راجع إلى مضمون الجملة، كأنه قيل: لا ريب في ذلك، أي في كونه منزلاً من رب العالمين ويشهد لوجاهته قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ لأنّ قولهم: هذا مفترى، إنكار لأن يكون من رب العالمين، وكذلك قوله: ﴿بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ وما فيه من تقدير أنه من الله، وهذا أسلوب صحيح محكم: أثبت أوّلاً أن تنزيله من رب العالمين، وأن ذلك ما لا ريب فيه، ثم أضرب عن ذلك إلى قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ لأن «أم» هي المنقطعة الكائنة بمعنى: بل والهمزة، إنكاراً لقولهم وتعجيباً منه لظهور أمره: في عجز بلغائهم عن مثل ثلاث آيات منه، ثم أضرب عن الإنكار إلى إثبات أنه الحق من ربك. ونظيره أن يعلل العالم في المسألة بعلة صحيحة جامعة، قد احترز فيها أنواع الاحتراز، كقول المتكلمين: النظر أوّل الأفعال الواجبة على الإطلاق التي لا يعري عن وجوبها مكلف، ثم يعترض عليه فيها ببعض ما وقع احترازه منه، فيرده بتلخيص أنه احترز من ذلك، ثم يعود إلى تقرير كلامه وتمشيته. فإن قلت: كيف نفى أن يرتاب في أنه من الله، وقد أثبت ما هو أطم من الريب، وهو قولهم: ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾؟ قلت: معنى ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أن لا مدخل للريب في أنه تنزيل الله، لأن نافي الريب ومميطه معه لا ينفك عنه وهو كونه معجزاً للبشر، ومثله أبعد شيء من الريب. وأما قولهم: ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾ فإما قول متعنت مع علمه أنه من الله لظهور الإعجاز له، أو جاهل يقوله قبل التأمل والنظر لأنه سمع الناس يقولونه ﴿مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ كقوله: ما أنذر آباؤهم، وذلك أن قريشاً لم يبعث الله

إليهم رسولاً[1] قبل محمد ﷺ. فإن قلت: فإذا لم يأتهم نذير لم تقم عليهم حجة. قلت: أما قيام الحجة بالشرائع التي لا يدرك علمها إلا بالرسل فلا، وأما قيامها بمعرفة الله وتوحيده وحكمته فنعم؛ لأن أدلة/ ٢/ ٩٦أ العقل الموصلة إلى ذلك معهم في كل زمان ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ فيها وجهان: أن يكون على الترجي من رسول الله ـ ﷺ ـ كما كان (لعله يتذكر) على الترجي من موسى وهارون عليهما السلام، وأن يستعار لفظ الترجي للإرادة.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾﴾

فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾؟ قلت: هو على معنيين، أحدهما: أنكم إذا جاوزتم رضاه لم تجدوا لأنفسكم ولياً، أي: ناصراً ينصركم ولا شفيعاً يشفع لكم. والثاني: أن الله وليكم الذي يتولى مصالحكم، وشفيعكم أي ناصركم على سبيل المجاز؛ لأن الشفيع ينصر المشفوع له، فهو كقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ فإذا خذلكم لم يبق لكم وليّ ولا نصير.

﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾﴾

﴿ٱلْأَمْرَ﴾ المأمور به من الطاعات والأعمال الصالحة ينزله مدبراً ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ ثم لا يعمل به ولا يصعد إليه ذلك المأمور به خالصاً كما يريده ويرتضيه إلا في مدة متطاولة؛ لقلة عمال الله والخلص من عباده وقلة الأعمال الصاعدة، لأنه لا يوصف بالصعود إلا الخالص ودل عليه قوله على أثره ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة: ٩] أو يدبر أمر الدنيا كلها من السماء إلى الأرض: لكل يوم من أيام الله وهو ألف سنة. كما قال: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾، ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ أي يصير إليه، ويثبت عنده.

---

(١) قال محمود: «يعني قريشاً لأنها لم يبعث لها نبي قط. فإن قلت: إن لم يتقدم بعث نبي إليهم فيما قامت عليهم الحجة. قلت: قيام الحجة بالشرائع التي لا يدرك علمها إلا بالرسل لا سبيل إليه. وأما قيامها بمعرفة الله تعالى وتوحيده وحكمته فنعم؛ لأن أدلة العقل معهم في كل زمان» قال أحمد: مذهب أهل السنة: أنه لا يدرك علم شيء من أحكام الله تعالى التكليفية إلا بالشرع وما ذكره الزمخشري تفريع على قاعدة التحسين والتقبيح بالعقل وقد مجها السمع فلم يبح بها القلم، فأعرض عنه حتى يخوض في حديث غيره. وإنما قامت الحجة على العرب بمن تقدم من الرسل إليهم كأبيهم إسماعيل وغيره، والمراد بقوله تعالى: ﴿مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ﴾ يعني ذرية للعرب في زمانه عليه الصلاة والسلام، إذ لم يبعث إليهم نذير معاصر، فلطف الله تعالى بهم وبعث فيهم رسولاً منهم.

ويكتب في صحف ملائكته كل وقت من أوقات هذه المدّة: ما يرتفع من ذلك الأمر ويدخل تحت الوجود إلى أن تبلغ المدة آخرها، ثم يدبر أيضاً ليوم آخر، وهلم جرا إلى أن تقوم الساعة. وقيل: ينزل الوحي مع جبريل عليه السلام من السماء إلى الأرض، ثم يرجع إليه ما كان من قبول الوحي أو ردّه مع جبريل وذلك في وقت هو في الحقيقة ألف سنة؛ لأن المسافة مسيرة ألف سنة في الهبوط والصعود؛ لأن ما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة سنة، وهو يوم من أيامكم لسرعة جبريل؛ لأنه يقطع مسيرة ألف سنة في يوم واحد. وقيل: يدبر أمر الدنيا من السماء إلى الأرض إلى أن تقوم الساعة، ثم يعرج إليه ذلك الأمر كله؛ أي يصير إليه ليحكم فيه ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ وهو يوم القيامة. وقرأ ابن أبي عبلة: يعرج، على البناء للمفعول. وقرئ: يعدون، بالتاء والياء.

﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٩﴾

﴿أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ حسنه، لأنه ما من شيء خلقه إلا وهو مرتب على ما اقتضته الحكمة وأوجبته المصلحة: فجميع المخلوقات حسنة وإن تفاوتت إلى حسن وأحسن، كما قال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾ [التين: ٤] وقيل: علم كيف يخلقه من قوله: قيمة المرء ما يحسن. وحقيقته، يحسن معرفته أي يعرفه معرفة حسنه بتحقيق وإتقان. وقرئ: خلقه: على البدل، أي: أحسن. فقد خلق كل شيء[1]. وخلقه: على الوصف، أي: كل شيء خلقه فقد أحسنه. سميت الذرية نسلاً؛ لأنها تنسل منه، أي: تنفصل منه وتخرج من صلبه[2] ونحوه قولهم للولد: سليل ونجل. و﴿سَوَّىٰهُ﴾ قوّمه، كقوله تعالى: ﴿فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ ودل بإضافة الروح إلى ذاته على أنه خلق عجيب لا يعلم كنهه إلا هو، كقوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ . . .﴾ الآية كأنه قال: ونفخ فيه من الشيء الذي اختص هو به وبمعرفته.

﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ۝١٠ ۞ قُلْ

---

(١) قوله «أي أحسن فقد خلق كل شيء» لعل لفظ «فقد» مزيدة من قلم الناسخ. وعبارة النسفي: على البدل، أي: أحسن خلق كل شيء ويمكن أنه ليس مزيداً، بل هذا حاصل المعنى على البدل، كما أن عكسه الآتي هو حاصل المعنى على الوصف. (ع)

(٢) قوله «وتخرج من صلبه» لعل قبله سقطا تقديره: كما سميت النطفة سلالة، لأنها تسل منه. وفي الصحاح «النجل»: النسل. ونجله أبوه. أي: ولده. (ع)

﴿يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾

﴿وَقَالُوٓاْ﴾ قيل القائل أبي بن خلف، ولرضاهم بقولهم أُسند إليهم جميعاً. وقرئ: أئنا وأنا، على الاستفهام وتركه ﴿ضَلَلْنَا﴾ صرنا تراباً، وذهبنا مختلطين بتراب الأرض. لا نتميز منه، كما يضل الماء في اللبن أو غبنا ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بالدفن فيها، من قوله [من الطويل]:

وَآبَ مُضِلُّوهُ بِعَيْنٍ جَلِيَّةٍ .... (١)

وقرأ علي وابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ضللنا، بكسر اللام. يقال: ضل يضل وضل يضل. وقرأ الحسن ـ رضي الله عنه ـ: صللنا، من صلّ اللحم وأصلّ: إذا أنتن. وقيل: صرنا من جنس الصلة وهي الأرض. فإن قلت: بم انتصب الظرف في (أئذا ضللنا)؟ قلت: بما يدل عليه ﴿أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ وهو نبعث. أو يجدد خلقنا. لقاء ربهم: هو الوصول إلى العاقبة، من تلقي ملك الموت وما وراءه، فلما ذكر كفرهم بالإنشاء، أضرب عنه إلى ما هو أبلغ في الكفر، وهو أنهم كافرون بجميع ما يكون في العاقبة، لا بالإنشاء وحده. ألا ترى كيف خوطبوا بتوفي ملك الموت وبالرجوع إلى ربهم بعد ذلك مبعوثين للحساب والجزاء، وهذا معنى لقاء الله على ما ذكرنا والتوفي: استيفاء النفس وهي الروح. قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ﴾ [الزمر: ٤٢]وقال: أخرجوا أنفسكم، وهو أن يقبض كلها لا يترك منها شيء. من قولك: توفيت حقي/ ٢/ ٩٦ب من فلان، واستوفيته إذا أخذته وافياً كاملاً من غير نقصان. والتفعل والاستفعال: يلتقيان في مواضع: منها: تقصيته واستقصيته، وتعجلته واستعجلته. وعن مجاهد ـ رضي الله عنه ـ: حويت لملك الموت الأرض، وجعلت له مثل الطست، يتناول منها حيث يشاء. وعن قتادة: يتوفاهم ومعه أعوان من الملائكة. وقيل: ملك الموت: يدعو الأرواح فتجيبه، ثم يأمر أعوانه بقبضها.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا

---

(١) وآب مضلوه بعين جلية وغودر بالجولان حزم ونائل

يرثي ميتاً. والإياب: الرجوع. والإضلال: الدفق والتغيب. وجولان: جبل بالشام. والنائل: العطاء يعني: بترك ذلك الموصوف بالحزم والكرم، فقد ترك الوصفات هناك.

وهو للنابغة الذبياني في ديوانه ص ١٢١، ولسان العرب (ضلل)، (جلا)، وتاج العروس (ضلل)، (جلا)، وتهذيب اللغة ١١/ ١٨٧، ٤٦٥، وجمهرة اللغة ص ١٠٤٤، وبلا نسبة في جمهرة اللغة ص ١٠٧٧، ومقاييس اللغة ١/ ٤٩٦، ٣/ ٣٥٦، ومجمل اللغة ٣/ ٢٧٧.

نَسِيَنَكُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ يجوز أن يكون خطاباً لرسول الله ـ ﷺ ـ، وفيه وجهان: أن يراد به التمني، كأنه قال: وليتك ترى، كقوله ﷺ للمغيرة: «لو نظرت إليها» (١١٦٢). والتمني لرسول الله ـ ﷺ ـ، كما كان الترجي له في ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ لأنه تجرع منهم الغصص ومن عداوتهم وضرارهم، فجعل الله له تمني أن يراهم على تلك الصفة الفظيعة من الحياء والخزي والغم ليشمت بهم، وأن تكون لو الامتناعية قد حذف جوابها، وهو: لرأيت أمراً فظيعاً. أو: لرأيت أسوأ حال ترى. ويجوز: أن يخاطب به كل أحد، كما تقول: فلان لئيم، إن أكرمته أهانك، وإن أحسنت إليه أساء إليك، فلا تريد به مخاطباً بعينه، فكأنك قلت: إن أكرم وإن أحسن إليه، ولو وإذا كلاهما للمضي، وإنما جاز ذلك؛ لأن المترقب من الله بمنزلة الموجود المقطوع به في تحققه، ولا يقدر لنرى ما يتناوله، كأنه قيل: ولو تكون منك الرؤية، وإذ ظرف له. يستغيثون بقولهم ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ فلا يغاثون، يعني: أبصرنا صدق وعدك ووعيدك وسمعنا منك تصديق رسلك. أو كنا عمياً وصماً فأبصرنا وسمعنا ﴿فَٱرْجِعْنَا﴾ هي الرجعة إلى الدنيا ﴿لَآ ءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ على طريق الإلجاء والقسر، ولكننا بنينا الأمر على الاختيار[1] دون الاضطرار، فاستحبوا العمى على

١١٦٢ ـ أخرجه أحمد (٤/ ٢٤٤ ـ ٢٤٥)، والدارمي (٢/ ١٣٤) كتاب النكاح ـ باب الرخصة في النظر للمرأة عند الخطبة، والترمذي (٣/ ٣٩٧) كتاب النكاح ـ باب ما جاء في النظر إلى المخطوبة ـ حديث (١٠٨٧)، والنسائي (٦/ ٦٩) كتاب النكاح باب إباحة النظر قبل التزويج، وابن ماجه (١/ ٦٠٠) كتاب النكاح ـ باب النظر إلى المرأة إذا أراد أن يتزوجها حديث (١٨٦٦)، وعبد الرزاق (١٣٣٥) وسعيد بن منصور رقم (٥٥١ ـ ٥١٨)، وابن الجارود ص (٢٢٦) كتاب النكاح حديث (٦٧٥)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (٣/ ١٤)، كتاب النكاح ـ باب الرجل يريد تزوج المرأة هل يحل له النظر إليها أم لا؟ والدارقطني (٣/ ٢٥٢): كتاب النكاح ـ باب المهر ـ حديث (٣١)، والبيهقي (٧/ ٨٤) كتاب النكاح باب نظر الرجل إلى المرأة يريد أن يتزوجها. والخطيب في التاريخ (٧/ ٣٤٤)، والبغوي في شرح السنة (٥/ ١٤ ـ بتحقيقنا) من طريق عاصم الأحول عن بكر بن عبد الله المزني عن المغيرة قال: «خطبت امرأة فذكرتها لرسول الله ـ ﷺ ـ فقال لي: هل نظرت إليها؟ فقلت: لا. قال: فانظر إليها؛ فإنه أحرى أن يؤدم بينكما».

قال الحافظ في تخريج الكشاف: هذا طرف من حديث أخرجه الترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وابن أبي شيبة، وابن حبان، والحاكم، وأحمد والبزار، وغيرهم من حديث المغيرة «أنه خطب امرأة فقال لي النبي ـ ﷺ ـ انظر إليها؛ فإنه أحرى أن يؤدم بينكما» ورواه أبو عبيد في الغريب بلفظ أنه قال للمغيرة وقد خطب امرأة: «لو نظرت إليها» الحديث. انتهى.

---

(١) قوله «ولكننا بنينا الأمر على الاختيار» لما أوجب المعتزلة على الله الصلاح قالوا: إنه قد شاء الهدى للكل، ولكن مشيئة تخيير، لا مشيئة إجبار، فلذا لم يهتد الكل بل البعض، ولو شاء مشيئة قسر =

الهدى، فحقت كلمة العذاب على أهل العمى دون البصراء. ألا ترى إلى ما عقبه به من قوله: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ﴾ فجعل ذوق العذاب نتيجة فعلهم: من نسيان العاقبة، وقلة الفكر فيها، وترك الاستعداد لها. والمراد بالنسيان: خلاف التذكر، يعني: أن الانهماك في الشهوات أذهلكم وألهاكم عن تذكر العاقبة وسلط عليكم نسيانها، ثم قال: ﴿إِنَّا نَسِينَاكُمْ﴾ على المقابلة، أي: جازيناكم جزاء نسيانكم. وقيل: هو بمعنى الترك، أي: تركتم الفكر في العاقبة، فتركناكم من الرحمة. وفي استئناف قوله إنا نسيناكم وبناء الفعل على إن واسمها تشديد في الانتقام منهم والمعنى فذوقوا هذا أي ما أنتم فيه من نكس الرءوس والخزي والغم بسبب نسيان اللقاء، وذوقوا العذاب المخلد في جهنم بسبب ما عملتم[1] من المعاصي والكبائر الموبقة[2].

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾

﴿إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا﴾ أي وعظوا: سجدوا تواضعاً لله وخشوعاً، وشكراً على ما رزقهم من الإسلام ﴿وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ ونزهوا الله من نسبة القبائح إليه، وأثنوا عليه حامدين له ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ كما يفعل من يصر مستكبراً كأن لم يسمعها. ومثله قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا﴾ [الإسراء: ١٠٧]: ﴿تَتَجَافَى﴾ ترتع وتتنحى ﴿عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ عن الفرش ومواضع النوم، داعين ربهم عابدين له؛ لأجل خوفهم من سخطه وطمعهم في رحمته، وهم المتهجدون، وعن رسول الله ـ ﷺ ـ في تفسيرها: «قيام العبد من الليل» (١١٦٣)، وعن الحسن ـ رضي الله عنه ـ: أنه التهجد.

١١٦٣ ـ أخرجه أحمد في «مسنده» (٥/ ٢٣٢ ـ ٢٤٢). وابن أبي شيبة، وإسحاق بن راهويه في مسنديهما كما في تخريج الكشاف للزيلعي (٣/ ٨٤) من طريق حماد بن سلمة عن عاصم بن بهدلة عن شهر بن حوشب عن معاذ عن النبي ـ ﷺ ـ قال في قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ =

= لاهتدى الكل. وأهل السنة لم يوجبوا على الله شيئاً، وقالوا: كل ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، خيراً كان أو شراً. واستلزام الإرادة لوقوع المراد لا يستلزم القسر والإجبار للعباد؛ لما لهم من الكسب في أفعالهم، وإن كانت في الحقيقة مخلوقة لله تعالى، كما تقرر في علم التوحيد. (ع)

(١) قال محمود: «معناه بما كنتم تعملون من الكفر والكبائر الموبقة» قال أحمد: قد تمهد من مذاهب أهل السنة أن المقتضي لاستحقاق الخلود في العذاب هو الكفر خاصة. وأما ما دونه من الكبائر فلا يوجب خلوداً والمسألة سمعية. وأدلتها من الكتاب والسنة قطعية، خلافاً للقدرية.

(٢) قوله «والكبائر الموبقة» أي: المهلكة. (ع)

وعن رسول الله ـ ﷺ ـ: «إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة جاء مناد ينادي بصوت يسمع الخلائق كلهم: سيعلم أهل الجمع اليوم من أولى بالكرم. ثم يرجع فينادي: ليقم الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع؛ فيقومون وهم قليل. ثم يرجع فينادي: ليقم الذين كانوا يحمدون الله في البأساء والضراء، فيقومون وهم قليل، فيسرحون جميعاً إلى الجنة. ثم يحاسب سائر الناس» (١١٦٤). وعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ: كان أناس من أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ يصلون من صلاة المغرب إلى صلاة العشاء الآخرة، فنزلت فيهم (١١٦٥). وقيل: هم الذين يصلون صلاة العتمة لا ينامون عنها ﴿مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم﴾

= قال: «قيام العبد من الليل» .اهـ.

ومن طريق أحمد رواه الثعلبي، وبهذا الإسناد رواه ابن مردويه كما في تخريج الكشاف للزيلعي (٣/ ٨٤).

وله طريق آخر بمعناه عن معاذ أيضاً.

أخرجه الترمذي (٥/ ١٣ ـ ١٤): كتاب الإيمان: باب ما جاء في حرمة الصلاة، حديث (٢٦١٦)، وابن ماجه (٢/ ١٣١٤ ـ ١٣١٥): كتاب الفتن: باب كف اللسان في الفتنة، حديث (٣٩٧٣) عن معمر عن عاصم بن أبي النجود عن أبي وائل عن معاذ قال: «كنت مع النبي ـ ﷺ ـ في سفر، فأصبحت يوماً قريباً منه... إلى أن قال: «ألا أدلك على أبواب الخير: الصوم جنة، والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار، وصلاة الرجل في جوف الليل» ثم قرأ: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ﴾ .اهـ.

قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

وله طريق آخر:

أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤١٣) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه .اهـ.

قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه أحمد، وابن أبي شيبة، وإسحاق، والحاكم من رواية أبي وائل عن معاذ في أثناء حديث مرفوع قال: «وصلاة الرجل في جوف الليل ثم قرأ: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ﴾. انتهى.

١١٦٤ ـ اختصره الحاكم في المستدرك في تفسير سورة النور (٢/ ٣٩٨ ـ ٣٩٩) عن أبي إسحاق عن عبد الله بن عطاء عن عقبة بن عامر الجهني به.

وأخرجه إسحاق بن راهويه، وأبو يعلى في مسنديهما والثعلبي في تفسيره، والبيهقي في شعب الإيمان كما في تخريج الكشاف للزيلعي (ج ٣/ ٨٥).

قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه إسحاق وأبو يعلى من رواية شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد مطولاً، وهو عند الحاكم باختصار. انتهى.

١١٦٥ ـ أخرجه أبو داود (٢/ ٣٥): كتاب الصلاة: باب وقت قيام النبي ـ ﷺ ـ من الليل، حديث (١٣٢١) من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن أنس بن مالك به.

وأخرجه ابن مردويه في تفسيره من حديث الحارث بن رحبة عن مالك بن دينار عن أنس بن مالك به كما في تخريج الكشاف للزيلعي (٣/ ٨٦).

وله سند آخر: عند البزار في مسنده: عن عبد الحميد بن سليمان عن مصعب عن زيد بن أسلم عن =

على البناء للمفعول. ما أخفى لهم على البناء للفاعل، وهو الله سبحانه. وما أخفى لهم. وما نخفي لهم. وما أخفيت لهم: الثلاثة للمتكلم، وهو الله سبحانه. وما: بمعنى الذي، أو بمعنى أي[1]. وقرئ: من قرّة أعين. وقرات أعين. والمعنى: لا تعلم النفوس ـ كلهنّ ولا نفس واحدة منهنّ لا ملك مقرب ولا نبي مرسل ـ أيّ نوع عظيم من الثواب ادخر الله لأولئك وأخفاه من جميع خلائقه، لا يعلمه إلا هو مما تقر به عيونهم، ولا مزيد على هذه العدة ولا مطمح وراءها، ثم قال: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ فحسم أطماع المتمنين[2]: وعن النبي ﷺ: «يقول الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا/ ٢/ ٩٧أ أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، بله[3] ما أطلعتهم عليه. اقرؤا إن شئتم: فلا تعلم نفس

= أبيه قال بلال: «كنا نجلس... إلى آخره بنحوه كما في تخريج الكشاف للزيلعي (٣/ ٨٦).
قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه ابن مردويه من رواية الحارث بن رحبة عن مالك بن دينار: «سألت أنس بن مالك عن قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ الآية فقال: كان ناس ـ فذكره» ورواه أبو داود من حديث سعيد عن قتادة عن أنس نحوه، قال: وكان الحسن يقول: «هو قيام الليل» والبزار من طريق زيد بن أسلم عن أبيه، قال قال بلال: كنا نجلس وناس من أصحاب النبي ـ ﷺ ـ يصلون بعد المغرب إلى العشاء فنزلت هذه الآية» قال: ولا نعلم له طريقاً إلا هذه. ولا روى أسلم عن بلال غيره. انتهى.

---

(١) قوله «أو بمعنى أي» لعله: أي شيء. (ع)

(٢) قال محمود: «هذا حسم لأطماع المتمنين» قال أحمد: يشير إلى أهل السنة لاعتقادهم أن المؤمن العاصي موعود بالجنة، ولا بد من دخوله إياها وفاء بالوعد الصادق، وأن أحداً لا يستحق على الله بعمله شيئاً، فلما وجد قوله تعالى: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ اغتنم الفرصة في الاستشهاد على معتقد القدرية في أن الأعمال أسباب موجبة للجزاء. ولا دليل في ذلك لمعتقدهم مع قوله ﷺ: «لا يدخل أحد منكم الجنة بعمله، قيل: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله بفضل منه ورحمة» فهذا الحديث يوجب حمل الآية على وجه يجمع بينها وبينه، وذلك إما أن تحمل الآية على أن المراد منها قسمة المنازل بينهم في الجنة فإنه على حسب الأعمال، وليس بذاك فإن المذكور في الآية مجرد دخول الجنة لا اقتسام درجاتها. وإما أن تحمل ـ وهو الظاهر، والله أعلم ـ على أن الله تعالى لما وعد المؤمن جنته ـ ووعده يجب أن يكون حقاً وصدقاً، تعالى وتقدس ـ صارت الأعمال بالوعد كأنها أسباب موجبات، فعوملت في هذه العبارة معاملتها، والمقصود من ذلك: تأكيد صدق الوعد في النفوس، وتصوره بصورة المستحق بالعمل، كالأجرة المستحقة شاهداً على العمل من باب مجاز التشبيه، والله أعلم. وذكر الزمخشري الحديث المشهور وهو «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، اقرؤوا إن شئتم ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾» وكان جدي رحمه الله يستحسن أن تقرأ الآية تلو الحديث المذكور بسكون الياء من أخفي، ورده إلى المتكلم، وهي من القراءات المستفيضة. والسبب في اختيار ذلك مطابقة صدر الحديث وهو: أعددت لعبادي ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ليكون الكل راجعاً إلى الله تعالى، مسنداً إلى ضمير اسمه عز وجل صريحاً، والله الموفق.

(٣) قوله «بله ما أطلعتهم عليه» في الصحاح «بله»: كلمة مبنية على الفتح مثل كيف؛ ومعناها: دع، كما =

ما أخفي لهم من قرة أعين (١١٦٦). وعن الحسن ـ رضي الله عنه ـ: أخفى القوم أعمالاً في الدنيا، فأخفى الله لهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت.

﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾

﴿كَانَ مُؤْمِنًا﴾ و﴿كَانَ فَاسِقًا﴾ محمولا على لفظ من و﴿لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾ محمول على المعنى بدليل قوله تعالى: ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.... ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟﴾ ونحوه قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ﴾ [محمد: ١٦]. و﴿جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ نوع من الجنان:

١١٦٦ ـ ورد من حديث أبي هريرة، وأبي سعيد الخدري، وأنس بن مالك، وسهل بن سعد الساعدي، وحديث أبي الدرداء.

فأما حديث أبي هريرة:

أخرجه البخاري ٦/ ٣٦٦ في بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة (٣٢٤٤)، ومسلم ٤/ ٢١٧٤ ـ ٢١٧٥ في الجنة، في أوله (٢ ـ ٣ ـ ٤/ ٢٨٢٤)، والترمذي ٥/ ٣٢٣ في التفسير باب من سورة السجدة (٢١٩٧)، وابن ماجه ٢/ ١٤٤٧ في الزهد، باب صفة الجنة (٤٣٢٨)، وأحمد ٢/ ٣١٣، والحميدي في مسنده ٢/ ٤٨٠ برقم (١١٣٣)، وابن أبي شيبة ١٣/ ١٠٩، والطبراني في الصغير ١/ ٢٦، والطبري في تفسيره ٢١/ ٦٦ ـ ٦٧، وهناد في الزهد (١ ـ ٢)، وأبو نعيم في الحلية ٩/ ٢٦ من طرق عن أبي هريرة بنحوه.

وأما حديث سهل بن سعد الساعدي: فأخرجه مسلم في المصدر السابق (٥/ ٢٨٢٥).

وأما حديث أبي سعيد الخدري: فأخرجه أبو نعيم في الحلية ٢/ ٢٦٢، والطبراني في الأوسط والبزار كما في المجمع ١٠/ ٤١٥ وقال الهيثمي: ورجال البزاو رجال الصحيح.

وأما حديث أنس: فرواه الطبراني في الأوسط كما في المجمع. وقال الهيثمي: فيه محمد بن مصعب القرمساني. وهو ضعيف بغير كذب.

وأما حديث أبي الدرداء: فأخرجه البزار كما في المجمع. وقال الهيثمي: فيه زيادة بن محمد وهو ضعيف.

وروي من قول ابن مسعود موقوفاً أخرجه الفريابي وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه كما في الدر المنثور ٥/ ١٧٦.

قال الحافظ: متفق عليه، من طريق أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ. انتهى.

= أجازه الأخفش في قول كعب بن مالك [من الكامل]:

تذر الجماجم ضاحيًا هاماتها ... بله الأكف كأنها لم تخلق

ويقال: معناها سوى. وفي الحديث: «أعددت لعبادي... إلخ». (ع)

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾﴾ سميت بذلك لما روي عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ قال: تأوي إليها أرواح الشهداء. وقيل: هي عن يمين العرش. وقرئ: جنة المأوى، على التوحيد ﴿نُزُلًا﴾ عطاء بأعمالهم. والنزل: عطاء النازل، ثم صار عاماً ﴿فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي ملجؤهم ومنزلهم. ويجوز أن يراد: فجنة مأواهم النار، أي النار لهم، مكان جنة المأوى للمؤمنين: كقوله: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾﴾. ﴿ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾ عذاب الدنيا من القتل والأسر، وما محنوا به من السنة[1] سبع سنين. وعن مجاهد ـ رضي الله عنه ـ: عذاب القبر. ﴿ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ عذاب الآخرة، أي: نذيقهم عذاب الدنيا قبل أن يصلوا إلى الآخرة ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي يتوبون[2] عن الكفر، أو لعلهم يريدون الرجوع ويطلبونه، كقوله تعالى: ﴿فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ وسميت إرادة الرجوع رجوعاً، كما سميت إرادة القيام قياماً في قوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ ويدل عليه قراءة من قرأ: يرجعون، على البناء للمفعول. فإن قلت: من أين صح تفسير الرجوع بالتوبة؟ و«لعل» من الله إرادة، وإذا أراد الله شيئاً كان ولم يمتنع، وتوبتهم مما لا يكون، ألا ترى أنها لو كانت مما يكون لم يكونوا ذائقين العذاب الأكبر؟ قلت: إرادة الله تتعلق بأفعاله وأفعال عباده، فإذا أراد شيئاً من أفعاله كان ولم يمتنع، للاقتدار وخلوص الداعي. وأما أفعال عباده: فإما أن يريدها وهم مختارون لها، أو مضطرون إليها بقسره وإلجائه، فإن أرادها وقد قسرهم عليها فحكمها حكم أفعاله، وإن أرادها على أن يختاروها وهو عالم أنهم لا يختارونها لم يقدح ذلك في اقتداره[3]، كما لا يقدح في اقتدارك إرادتك أن يختار عبدك طاعتك وهو لا يختارها، لأنّ اختياره لا يتعلق

---

(١) قوله «وما محنوا به من السنة» أي المجدبة. أو المراد بها الجدب. كما يؤخذ من الصحاح. (ع)

(٢) قال محمود: «معناه لعلهم يتوبون. فإن قلت: من أين صح تفسير الرجوع بالتوبة ولعل من الله إرادة، وإذا أراد الله شيئاً كان، وتوبتهم مما لا يكون؛ لأنهم لو تابوا لم يكونوا ذائقين العذاب الأكبر. قلت: إرادة الله تعالى تتعلق بأفعاله وأفعال عباده فإذا أراد شيئاً من أفعاله كان ولم يمتنع، للاقتدار وخلوص الداعي. وأما أفعال عباده فإما أن يريدها وهم مختارون لها، أو مضطرون إليها بقسره، فإن أرادها وقد قسرهم عليها فحكمها حكم أفعاله، وإن أرادها على أن يختارها وهو عالم أنهم لا يختارونها لم يقدح ذلك في اقتداره. كما لا يقدح في اقتدارك: إرادتك أن يختار عبدك الطاعة لك وهو لا يختارها. لأن اختيارها لا يتعلق بقدرتك فلا يكون فقده عجزاً منك» قال أحمد: هذا الفصل رديء جداً مفرع على الإشراك الجلي لا على الإشراك الخفي، فاعتصم بدليل الوحدانية على رده واجتنابه من أصله، والله المستعان. وإنما جره في تفسير لعل إلى الإرادة، والحق في تفسيرها أنها لترجي المخاطبين امتناع الترجي على الله تعالى، كذا فسرها سيبويه فيما تقدم، والله أعلم.

(٣) قوله «لم يقدح ذلك في اقتداره» أي عدم وقوعها وعدم اختيارهم إياها. فهذا على مذهب المعتزلة: من أنه قد يريد الشيء ولا يكون، ومذهب أهل السنة: أن كل ما أراده الله كان. (ع)

بقدرتك، وإذا لم يتعلق بقدرتك لم يكن فقده دالاً على عجزك. وروي في نزولها: أنه شجر بين علي بن أبي طاللب ـ رضي الله عنه ـ والوليد بن عقبة بن أبي معيط يوم بدر كلام، فقال له الوليد: اسكت فإنك صبيّ: أنا أشبّ منك شباباً، وأجلد منك جلداً، وأذرب منك لساناً، وأحدّ منك سناناً، وأشجع منك جناناً، وأملأ منك حشواً في الكتيبة. فقال له علي ـ رضي الله عنه ـ: اسكت، فإنك فاسق، فنزلت عامّة للمؤمنين والفاسقين (١١٦٧). فتناولتهما وكل من كان في مثل حالهما[1]. وعن الحسن بن علي ـ رضي الله عنهما ـ: أنه قال للوليد: كيف تشتم علياً وقد سماه الله مؤمناً في عشر آيات، وسماك فاسقاً؟

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾

ثم في قوله: ﴿ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾ للاستبعاد. والمعنى: أنّ الإعراض عن مثل آيات الله في وضوحها وإنارتها وإرشادها إلى سواء السبيل والفوز بالسعادة العظمى بعد التذكير بها مستبعد في العقل والعدل، كما تقول لصاحبك: وجدت مثل تلك الفرصة ثم لم تنتهزها استبعاداً لتركه الانتهاز؛ ومنه ثم في بيت الحماسة [من الطويل]:

وَلاَ يَكْشِفُ الْغُمَّاءَ إِلاَّ ابْنُ حُرَّةٍ يَرَىٰ غَمَرَاتِ الْمَوْتِ ثُمَّ يَزُورُهَا[2]

١١٦٧ ـ أخرجه الواحدي في «أسباب النزول» (ص ٣٦٣) رقم (٦٨٧) من طريق عبيد الله بن موسى ثنا ابن أبي ليلى عن الحكم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس.
وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ١٧٧) وعزاه للأصبهاني في «الأغاني» والواحدي وابن عدي وابن مردويه والخطيب وابن عساكر .اهـ. وينظر: تخريج الكشاف (٣/ ٨٨) للزيلعي.
قال الحافظ: أخرجه ابن مردويه والواحدي من رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: قال الوليد بن عقبة بن أبي معيط لعلي: «أنا أحد منك سنانا وأبسط منك لسانا وأملأ منك للكتيبة». فقال له علي: اسكت يا فاسق، فإنما أنت فاسق، فنزلت. وله طريق أخرى عند ابن مردويه من رواية الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ.
تنبيه: قوله: إن ذلك شجر بينهما يوم بدر غلط فاحش. فما كان الوليد حينئذٍ رجلاً.

---

(١) قال محمود: «سبب نزولها أنه شجر بين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه والوليد بن عقبة يوم بدر كلام فقال له الوليد اسكت فإنك صبي أنا أشب منك شباباً وأجلد جلدًا وأذرب لساناً وأحد منك سنانا وأشجع جنانا وأملأ حشوا في الكتيبة، فقال له علي: اسكت فإنك فاسق. قال الزمخشري: فنزلت عامة للمؤمنين والكافرين تتناولهما معاً» قال أحمد: ذكر للسبب المحقق: لأن المراد بالفاسق وبالذين فسقوا: الذين كفروا، لأنها نزلت في الوليد وهو كافر حينئذٍ، ثم أدرج فيه المؤمن تعصباً لمذهبه في وجوب خلود فساق المؤمنين كفساق الكافرين، فلم يزل يورد هذه العقائد الفواسد، ولقد اتسع الخرق على الراقع.

(٢) ولا يكشف الغمّاء إلا ابن حرة يرى غمرات الموت ثم يزورها =

استبعد أن يزور غمرات الموت بعد أن رآها واستيقنها واطلع على شدّتها. فإن قلت: هلا قيل: إنا منه منتقمون؟ قلت: لما جعله أظلم كل ظالم ثم توعد المجرمين عامة بالانتقام منهم، فقد دلّ على إصابة الأظلم النصيب الأوفر من الانتقام، ولو قاله بالضمير لم يفد هذه الفائدة.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾﴾

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾﴾ الكتاب للجنس والضمير في ﴿لِّقَآئِهِۦ﴾ له. ومعناه: إنا آتينا موسى عليه السلام مثل ما آتيناك من الكتاب، ولقيناه مثل ما لقيناك من الوحي، فلا تكن في شك من أنك لقيت مثله ولقيت نظيره كقوله تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ [يونس: ٩٤] ونحو قوله: ﴿مِن لِّقَآئِهِۦ﴾ قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾﴾ وقوله: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ / ٢/ ٩٧ب كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ [الإسراء: ١٣]. وجعلنا الكتاب المنزل على موسى عليه السلام ﴿هُدًى﴾ لقومه ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ﴾ الناس ويدعونهم إلى ما في التوراة من دين الله وشرائعه، لصبرهم وإيقانهم بالآيات. وكذلك لنجعلنّ الكتاب المنزل إليك هدى ونوراً، ولنجعلنّ من أمّتك أئمة يهدون مثل تلك الهداية لما صبروا عليه من نصرة الدين وثبتوا عليه من اليقين. وقيل: من لقائك موسى عليه السلام ليلة الإسراء أو يوم القيامة وقيل: من لقاء موسى عليه السلام الكتاب، أي: من

= نقاسمهم أسيافنا شر قسمة ففينا غواشيها وفيهم صدورها

لجعفر بن علبة الحارثي، شبه الداهية الغماء بأمر محسوس يغشى الناس ويغطيهم على طريق المكنية، والكشف تخييل وقال «ابن حرة» أي كريم؛ ليكون تهييجاً للسامع وبعثاً له على الهيجاء. والغمرة: الشدة. وغمرات الموت: شدائده وأهواله، كأحوال المعركة الشديدة. وقوله «ثم يزورها» أي يلاقيها برغبة، كلقاء المحبوب، وعطفه بثم؛ لأن بين رؤية الأهوال المفزعة، وبين الانحدار إليها برغبة بوناً بعيداً في العادة والتعقل. وشبه السيوف ممتدة متوسطة بينهم بشيء تجري فيه المقاسمة، ونقاسمهم تخييل لذلك، ثم فرع على تلك المقاسمة أن لهم غواشيها، أي ما يغشاهم منها وهي مقابضها. أو لأنها زائدة على النصل فهي غاشية له ولأعدائه «صدورها» أي أطرافها المتقدمة منها. وصدر كل شيء: مقدمه. وعبر بفي دون اللام، لأن «في» تفيد مجرد اشتمال الأعداء على الصدور لدخولها في أجسامهم اللام تفيد الملك وليس مراداً. وإن كان مقتضى القسمة. فلعله دفع توهمه بالعدول إلى «في» وذكرها أولاً تمهيداً للثانية.
ينظر: الدر المصون (٥/ ٣٩٩).

تلقيه له بالرضا والقبول. وقرئ: لما صبروا، ولما صبروا، أي لصبرهم. وعن الحسن ـ رضي الله عنه ـ: صبروا عن الدنيا. وقيل: إنما جعل الله التوراة هدى لبني إسرائيل خاصة، ولم يتعبد بما فيها ولد إسماعيل عليه السلام ﴿يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ﴾ يقضي، فيميز المحق في دينه من المبطل.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾﴾

الواو في ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ﴾ للعطف على معطوف عليه منوي من جنس المعطوف، والضمير في ﴿لَهُمْ﴾ لأهل مكة. وقرئ بالنون والياء، والفاعل ما دلّ عليه ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ لأنّ كم لا تقع فاعلة، لا يقال: جاءني كم رجل، تقديره: أولم يهد لهم كثرة إهلاكنا القرون. أو هذا الكلام كما هو بمضمونه ومعناه، كقولك: يعصم لا إله إلا الله الدماء والأموال. ويجوز أن يكون فيه ضمير الله بدلالة القراءة بالنون. و﴿ٱلْقُرُونِ﴾ عاد وثمود وقوم لوط ﴿يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ﴾ يعني أهل مكة، يمرون في متاجرهم على ديارهم وبلادهم. وقرئ: يمشون: بالتشديد.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾

﴿ٱلْجُرُزِ﴾ الأرض التي جرز نباتها أي قطع، إمّا لعدم الماء، وإمّا لأنه رعي وأزيل، ولا يقال للتي لا تنبت كالسباخ: جرز. ويدل عليه قوله: ﴿فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا﴾ وعن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: إنها أرض اليمن. وعن مجاهد ـ رضي الله عنه ـ: هي أبين[1]. ﴿بِهِۦ﴾ بالماء ﴿تَأْكُلُ﴾ من الزرع ﴿أَنْعَٰمُهُمْ﴾ من عصفه ﴿وَأَنفُسُهُمْ﴾ من حبه. وقرئ: يأكل، بالياء.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾

الفتح: النصر، أو الفصل بالحكومة، من قوله: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا﴾ [الأعراف: ٨٩] وكان المسلمون يقولون: إنّ الله سيفتح لنا على المشركين، ويفتح بيننا وبينهم، فإذا سمع

(١) قوله «هي أبين» في الصحاح «أبين»: اسم رجل نسب إليه عدن، فيقال: عدن أبين .اهـ. فتدبر. (ع)

المشركون قالوا: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ﴾ أي في أيّ وقت يكون ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في أنه كائن. و﴿يَوْمَ ٱلْفَتْحِ﴾ يوم القيامة وهو يوم الفصل بين المؤمنين وأعدائهم، ويوم نصرهم عليهم. وقيل: هو يوم بدر. وعن مجاهد والحسن ـ رضي الله عنهما ـ: يوم فتح مكة. فإن قلت: قد سألوا عن وقت الفتح، فكيف ينطبق هذا الكلام جواباً على سؤالهم. قلت: كان غرضهم في السؤال عن وقت الفتح، استعجالاً منهم عن وجه التكذيب والاستهزاء، فأجيبوا على حسب ما عرف من غرضهم في سؤالهم فقيل لهم: لا تستعجلوا به ولا تستهزؤا، فكأني بكم وقد حصلتم في ذلك اليوم، وآمنتم فلم ينفعكم الإيمان، واستنظرتم في إدراك العذاب فلم تنظروا. فإن قلت: فمن فسره بيوم الفتح أو بيوم بدر كيف يستقيم على تفسيره أن لا ينفعهم الإيمان، وقد نفع الطلقاء يوم فتح مكة وناساً يوم بدر؟ قلت: المراد أنّ المقتولين منهم لا ينفعهم إيمانهم في حال القتل، كما لم ينفع فرعون إيمانه عند إدراك الغرق ﴿وَٱنتَظِرْ﴾ النصرة عليهم وهلاكهم ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ الغلبة عليكم وهلاككم، كقوله تعالى: ﴿فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ [التوبة: ٥٢] وقرأ ابن السميفع رحمه الله: منتظرون، بفتح الظاء. ومعناه: وانتظر هلاكهم فإنهم أحقاء بأن ينتظر هلاكهم، يعني أنهم هالكون لا محالة. أو وانتظر ذلك؛ فإن الملائكة في السماء ينتظرونه.

عن رسول الله ـ ﷺ ـ: «من قرأ الم تنزيل وتبارك الذي بيده الملك، أعطي من الأجر كأنما أحيا ليلة القدر» (١١٦٨). وقال: «من قرأ الم تنزيل في بيته لم يدخل الشيطان بيته ثلاثة أيام» (١١٦٩).

١١٦٨ ـ تقدم تخريجه ويراجع حديث (٣٤٦).
قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي عن أبي، وله طريق أخرى عند الثعلبي من رواية أبي عصمة عن زيد العمي عن أبي بصرة عن ابن عباس عن أبي. وعند ابن مردويه من وجه آخر عن نافع عن ابن عمر، وفي إسناده داود بن معاذ وهو ساقط.
١١٦٩ ـ قال الحافظ الزيلعي في «تخريج الكشاف» (٣/ ٨٩) غريب جداً.
وقال الحافظ ابن حجر: لم أجده.